جامعة القاهرة
معهد البحوث والدراسات الافريقية

حوض النيل



بحوث ألقيت فى الندوة الدولية لحوض النيل

مارس ١٩٨٧

جامعة القاهرة – معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٣٥ – ٥٢

تقييم لكتابات المؤرخين المصريين والسودانيين عن التاريخ السياسى والحضارى لدول حوض النيل

(مع التركيز على مصر والسودان)



شوقى عطا الله الجمل

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بالمعهد

اتجهت الأنظار إلى حوض النيل بعد الكشوف الجغرافية التى ترتب عليها تسليط الأضواء على المناطق التى لم تكن معروفة للعالم الخارجى من القارة الأفريقية.

وكانت الحركة الكشفية قد تركزت فى البداية ولزمن غير قصير على السواحل الأفريقية فلم يهتم الأوربيون بالتوغل فى داخل القارة إلا بعد ذلك بزمن طويل [1].

ولا يهمنا هنا أن نتعرض لما أسفرت عنه هذه الكشوف لكن ما يرتبط بحديثنا هذا هو ما كتبه الرحالة من يوميات، وما تبع ذلك من محاولات للدول الأوربية للسيطرة على المناطق التى كشف عنها النقاب والتى ظهرت أهميتها للدول الإستعمارية.

والحقيقة أن يوميات الرحالة الأوربيين، وما اتصفت به من دقة وإسهاب وتسجيل لكافة المشاهدات من معالم طبيعية أو بشرية كانت هى البداية للإهتمام بتاريخ الشعوب والجماعات والقبائل التى تسكن أو التى سكنت فى الماضى هذه المناطق المكتشفة.

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن تطورات كشف أفريقيا انظر:
شوقى الجمل: تاريخ كشف وأفريقيا واستعمارها (القاهرة ١٩٨٠)

وفيما يتعلق بحوض النيل وتاريخه الحضارى والسياسى - فلاشك فى أن هذا التاريخ ارتبط إلى حد كبير بالكشف عن مجرى النهر العظيم الذى قامت الحياة على ضفتية والذى لم يُكشف تماما عن حقيقته إلا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ومن الغريب أنه كانت لدى بعض سكان هذا الحوض - وبخاصة المصريين القدماء معلومات عن بعض المناطق التى زاروها أوسمعوا عنها أو ارتبطوا بها بشكل ما من هذا الحوض - لكن ما أضعف من قيمة هذه المعلومات أنها لم تسجل تسجيلاً يتيح المجال للإستفادة منها.

وقد دلت الاثار التى عُثر عليها على أنه كانت بين مصر وبلاد النوبة الشمالية الواقعة جنوبها علاقات تجارية، وأن علاقات المصريين بأهالى النوبة ترجع إلى فجر التاريخ وأن هذه العلاقات أخذت تتطور منذ عهد الدولة القديمة فى مصر، وتعددت رحلات المصريين نحو الجنوب فى عهد الدولة القديمة وإن كنا لا نستطيع الجزم بالمدى الذى وصلوا إليه (٢).

على أن الآثار المصرية ظلت فى الحقيقة مُهملة إلى حدٍ كبير ولم يهتم أحد بأستنطاقها ومعرفة تاريخها ودلالتها وإلقاء الضوء عليها لمعرفة تاريخ الشعوب التى تركت هذه الآثار ومحاولة قراءة ما سجلوه عليها حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تقريباً.

ويرجع للفرنسيين الفضل فى الإهتمام بهذه الآثار.

ولعل العالم الفرنسى ماريت (Mariette) كان من أبرز من ظهر فى هذا المجال. فقد جاء إلى مصر فى سنة ١٨٥٠ وعكف على التنقيب عن أثار سقارة، وإليه يرجع الفضل فى الكشف عن معبد(٣) فن العجول فى (السرابيوم)، ولقد ظل

(٢) Emery W.H.: Nubian Treasure (London 1948) P. 22

(٣) Mariette : La Serapeum de Memphis

ولماريت العديد من الكتب التى نُشرت بالفرنسية فى باريس عن الآثار المصرية المكتشفة فى عصره.

يعمل منفرداً دون أن تكون له بالحكومة المصرية صلة رسمية حتى عينّه سعيد باشا سنة ١٨٥٨ مأموراً لأعمال العاديات بمصر. وقد بذل ماريت جهوداً موفقة فى التنقيب عن العاديات بمصر ودراستها والكتابة عنها ونقلت الآثار المكتشفة فى ذلك الوقت إلى مخازن فى بولاق .

ولقى ماريت بعد ذلك تعضيداً كبيراً من الخديوى إسماعيل ، وقد أمر إسماعيل بإصلاح وتوسيع مخازن بولاق وافتتحها الخديوى فى حفلة رسمية فى ١٨ أكتوبر ١٨٦٣ ، وبعد موت ماريت بعشر سنوات تقريباً أى عام ١٨٩١ نُقل متحف الجيزة إلى مكانه الحالى بجوار قصر النيل فى سنة ١٩٠٢ .

ومن الذين لمعت أبحاثهم فى ذلك الوقت أيضاً ماسبيرو (Maspero) الذى ألف العديد من الكتب عن الآثار المصرية المكتشفة ومنها دليل للآثار الموجودة وقتئذ فى المتحف المصرى بقصر النيل (٤) .

ولا نريد أن نسترسل فى الإشارة إلى الأعمال العلمية والأبحاث التاريخية التى بدأت من ذلك الوقت تظهر عن الآثار المصرية المعروفة أو التى أخذت الرمال والأتربة تزال عنها لتحكى تاريخ وحضارة المصريين القدماء.

هذا وأشير إلى أن الإهتمام أيضاً بدأ يوجه إلى الآثار العربية المرتبطة بتاريخ مصر منذ أن دخلت ضمن الدولة العربية فى القرن السابع الميلادى. وقد بدأ منذ عام ١٨٦٩ التفكير فى إنشاء دار للأثار العربية وإن كان هذا العمل الهام قد تم فعلاً فى عهد الخديوى توفيق.

على أن بعض الرحالة كانوا منذ أوائل القرن التاسع عشر قد بدأوا يهتمون بزيارة مصر وبلاد النوبة الواقعة جنوبها (بلاد السودان المعروفة فى ذلك الوقت) ويكتبون عن مشاهداتهم وعما سمعوه عن تاريخ وسكان هذه البلاد.

ونذكر من هؤلاء الرحالة على سبيل المثال - الرحالة الفرنسى كيو (Caillaut) الذى وصل فى رحلته عن مصر والسودان حتى فازوغلى وسجل مشاهداته فى هذه البلاد(٥) .

(٤) Maspero: Guide de Visteur au Muse de Caire (Caire 1915).

(٥) Caillaut F.: Voyage a Meroé au Fleuve Blanc, au dela Defazogli L fait dans les années 1819, 1820, 1821, 3 Vols., (Paris 1886).

كذلك الرحالة الفرنسى كومب الذى زار مصر وبلاد النوبة وعبر صحراء بيوضة وكتب عن البشاريين وحياتهم[٦] .

كذلك ممن إهتموا بتاريخ السودان، وأثاره الرحالة الإنجليزى بدج وكتابه بجزئية من المراجع الهامة فى ذلك الوقت المبكر[٧] .

على أن الأضواء فى الحقيقة تركزت إلى حد كبير على بلاد النوبة وآثارها بسبب البعثات التى بدأت منذ أوائل القرن العشرين تفد إلى هذه البلاد للتنقيب فى المسافات الشاسعة التى ستغمرها مياه خزان أسوان عندما فُكر فى إنشاء الخزان ، فبحثت عدة مناطق فى بلاد النوبة الشمالية وعملت حفائر من أبرزها الحفائر التى قام بها الدكتور ريزنر (Dr. Reisner) فى كرمة جنوب الشلال الثالث [٨] .

كذلك يذكر فى هذا المجال بعثة العالم الأثرى الإنجليزى والتر إمرى (Walter Emery) الذى سبقت الإشارة لمؤلفه[٩] .

ولا نريد أن نسترسل فى ذكُر أسماء الرحالة والكتاب الذين إهتمو بالكتابة عن تاريخ مصر والسودان القديم

لكن ما نريد أن نسجله هنا فيما نحن بصدده هو أن الظاهرة التى تبرز هى

---

(٦) Combes, E.: Voyage en Egypt., en Nubie dans le desert de Bayouda des bischarys (Paris 1846).

(٧) Budge E. A. Wallis: The Egyptian Sudan, its History and Monuments 2 Vols. (London 1901).

(٨) G. Reisner وكذلك جيمس برستيد (Breasted) من علماء الأثار الأمريكيين ومن تلاميذ العالم الألمانى الكبير المتخصص فى المصريات أدولف أرمن الذى وضع أجرومية اللغة المصرية القديمة. وبرستيد مؤلف الكتاب المعروف الذى ترجم للعربية عن تاريخ مصر القديمة . برستيد (جيمس هنرى) : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى. (ترجمة د. حسن كمال القاهرة ١٩٢٩).

ملاحظة : ولع الألمان بدراسة الحضارة الفرعونية وأصبحت المدرسة الألمانية بالذات رائدة فى هذا المجال.

(٩) Emery, W. B. Op Cit.

أن الإهتمام بالكشف عن الآثار القديمة فى مصر والسودان وكتابة تاريخهما تركزت فى هذا الوقت بالذات فى الرحالة والكتاب والباحثين وعلماء الآثار الأجانب.

وقد ظل الوضع كذلك حتى بدأ يظهر جيل من المؤرخين والأثريين المصريين والسودانيين - من أمثال الأستاذ الدكتور سليم حسن الذى أثرى بحق المكتبة التاريخية بكتاباته وأبحاثه عن تاريخ مصر وبلاد النوبة.(١٠)

والظاهرة التى تبرز للعيان والتى ستلاحقنا فيما بعد حين نتعرض لكتابات هؤلاء المؤرخين المصريين وكذلك للمؤرخين السودانيين أيضاً - هى أن مؤلفاتهم لم تقتصر على اللغة العربية بل اتجهوا للتأليف أيضاً باللغتين الإنجليزية والفرنسية ولعل هذه الظاهرة تحتاج لتعليل وتفسير(١١) .

كذلك يذكر فى هذا المجال الأستاذ الدكتور/ أحمد فخرى وعبد المنعم أبوبكر وعبد العزيز صالح وغيرهم من العلماء البارزين فى دراسة تاريخ مصر والبلاد التى اتصلت بها فى العصور القديمة.

وقد تركز جزء كبير من جهد الأستاذ الدكتور أحمد فخرى على الصحراء الغربية والآثار التى عُثر عليها فى الواحات بها(١٢) .

وإذا تركنا الأبحاث والكتابات الأثرية والتاريخية المتعلقة بهذا الجانب من تاريخ مصر وبلاد النوبة القديم والذى إهتم به الأجانب وتبعهم فيما بعد

(١٠) سليم حسن: مصر القديم (١٦ جزء) ١٩٤٠ - ١٩٥٨،

(١١) سليم حسن له عدة مراجع بالإنجليزية نذكر منها على سبيل المثال Excavations at Giza, The Sphinx; its History in the Light of Recent Excavations.

وهو من عدة مجلدات تجاوزت ١٢ مجلداً.

وله عدة مؤلفات بالفرنسية منها مثلا بحث هام مدعم بالعديد من الرسومات التخطيطية عن معركة قادش.

Le Poeme dit de pentaour et le Rapport officiel sur la bataille de Qadesh. 162 plates (universite `Egyptienne, faculté des letters - 1929 Caire)

(١٢) انظر Fakhry, Ahmed: The Egyptian Deserts, Siwa Oasis (London 1975)

: The Egyptian Deserts, Bahria Oasis.

المصريون بإلقاء الأضواء على حضارة وتاريخ هذه البلاد التى ظهر أنها من أعرق الحضارات الإنسانية وأقدمها - نجد أن تاريخ مصر والسودان (بلاد النوبة) فى العصور الوسطى يرتبط إلى حد كبير بالدول التى كانت تبسط نفوذها على هذه البلاد، فمصر حتى الفتح العربى لها كانت خاضعة لحكم الرومان، ولا نكاد نجد لها تاريخاً محدداً سوى ما يتعلق بالأحداث الهامة التى إرتبطت بها كدخول المسيحية مصر وبلاد النوبة وإنتشارها بها وما ترتب على ذلك من إضطهاد الرومان للمسيحيين المصريين.

والحقيقةُ أن كتابات المؤرخين المصريين عن هذه الفترة لا تُشفى الغليل - لكن معالجة تاريخ هذه الفترة جاء فى الغالب ضمن الكتابات التى أرخت لتاريخ الكنيسة المصرية، ونشير فى هذا المجال إلى الكتابات الأخيرة لبعض المؤرخين المصريين والتى تعرضت بالذات لأوضاع مصر والمصريين فى ظل حكم الرومان والتى ركزت بالذات على إضطهاد الرومان خاصة فى عهد دقلد يانوس للمسيحيين المصريين ثم الإشارات إلى إنتشار المسيحية فى بلاد النوبة وتكوين ممالك النوبة الثلاث(١٣).

وبدخول العرب مصر فى عام ٦٤١ هـ يدخل تاريخ هذه البلاد ضمن التاريخ العربى.

وكما دخلت المسيحية بلاد النوبة عن طريق مصر كذلك الإسلام دخل بلاد النوبة عن هذا الطريق.

(١٣) انظر زاهر رياض: كنيسة الإسكندرية (١٩٦٢)،
كذلك انظر يوحنا الا سنسى: التاريخ الكنسى (وقد ألفه فى القرن السادس عشر) عن تاريخ الكنيسة والحركات التبشيرية.
ومن أهم ما كتب عن كنائس وآثار مصر المسيحية من أديره وغيرها وأثار النوبة التى أندثر كثير منها ما كتبه.
Abu - Salih - Al - Armani: The churches and Monasteries of Egypt and some Neighbouring countries
(Edited and Translated by B. T. Evetts.,. with Notes by A. J. Butler Oxford 1895).

والحقيقة أن تاريخ هذه الفترة خاصة فيما يتعلق ببلاد النوبة وإنتشار الإسلام فى العصور الوسطى – لم تحظ بالدراسة والتحليل من المؤرخين المصريين إلا حديثاً [١٤]

وإن كان (Budge) قد تعرض للكثير من الأحداث المتعلقة بهذه الفترة فقد تعرض للعلاقات بين ممالك النوبة المسيحية والولاة المسلمين فى مصر وأحوال ممالك النوبة المسيحية من الناحية السياسية والإجتماعية والإقتصادية والظروف التى أدت فى النهاية إلى نهاية هذه الممالك [١٥] .

وأهم ما يعتمد عليه المؤرخون المصريون حديثاً فى كتاباتهم عن تاريخ بلاد النوبة المسيحية وعلاقاتها بمصر الإسلامية مصدران هما:

١- المسعودى [١٦] .

٢- عبدالله بن سليم الأسوانى[١٧] .

ولعل من أهم ما حظى بالدراسة هو الإتفاقية التى أطلق عليها المقريزى إسم "معاهدة البقط" والتى عُقدت بين والى مصر عبدالله بن سعد بن أبى السرح وبين حاكم النوبة[١٨] .

على أن تاريخ مصر الإسلامية والتطورات التى طرأت عليها سواء فى ظل الدولة العباسية أو فى عهد الطولونيين والإخشيديين ثم الفاطميين والأيوبيين والمماليك – قد حظى أخيراً بدراسات متخصصة من الباحثين المصريين بالذات

---

(١٤) من أهم الدراسات الحديثة فى هذا المجال:
مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى (١٩٥٦).

(١٥) Budge, E. A. Wallis: The Egyptian, Sudan, its History and Monuments 2 Vols.. (London 1901).

(١٦) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر (توفى ٣٤٦ هـ ٨٥٩م).

(١٧) عبدالله بن سليم الأسوانى: أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل.

(١٨) انظر المقريزى: المواعظ والإعتبار فى ذكر الخطط والآثار جـ ١ ص ، ٣٢٣

(١٨) ولتحليل المعاهدة ارجع إلى : شوقى الجمل: تاريخ سودان وادى النيل وعلاقاته بمصر جـ١ (ص ٢٣١ وما بعدها).

ومن أساتذة التاريخ الإسلامى فى الجامعات المصرية على وجه الخصوص وقد تعددت الرسائل العلمية التى عكف الباحثون فيها على دراسة حقبة من حقبات هذا التاريخ بل إن هناك دراسات متعمقة اتجهت لدراسة ناحية معينة أو ظاهرة متعلقة ببعض من هذه العصور، ولا شك فى أن هذه الدراسات التى أعتمد الكثير منها على المصادر الأصلية ألقى أضواءً طيبة على تاريخ مصر.

وقد لقى تاريخ السودان وعلاقاته بمصر وبالأزهر الشريف فى هذه الفترة بعض العناية - وإن كنت اعتقد أن هذه الدراسات عن تاريخ السودان منذ أن إنضم إلى الدول العربية الإسلامية وما يتعلق بذلك من دراسة للمجتمع السودانى ومدى تغلغل الإسلام بمبادئة الصحيحة فيه ، والمدى الذى وصل إليه فى تغلغله إلى الجنوب والعوائق التى اعترضت طريقه هذا - تحتاج إلى دراسات أوفى (١٩) .

ولابد من الإشارة إلى أن الأجانب أيضاً كان لهم نصيبهم فى هذا المجال - وفى مقدمة هذه الدراسات ما كتبه الإستاذ ترمنجهام عن الإسلام فى السودان(٢٠).

وارتبط تاريخ دول حوض النيل عامة، ومصر والسودان بوجه خاص فى العصر الحدييث إلى حد كبير بالجهود التى بُذلت لحل مشكلة النيل والكشف عن مجرى هذا النهر وتاريخ الشعوب القاطنة على جانبية، وقد أدخلت هذه الكشوف دول حوض النيل كلها فى دائرة الصراع الأوربى، وأنعكس ذلك بالطبع على تاريخ هذه البلاد.

وكان القرن الثامن عشر والنصف الثانى من هذا القرن بالذات بداية للجهود المكثفة والرحلات الكشفية والكتابات عن هذا النهر.

وكان للرحالة الإنجليز بالذات نصيب الأسد فى الكشف عن منابع النيل واعطاء صورة كاملة عنه.

(١٩) من الدراسات التى عملت فى هذا المجال:

حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا.

محمد ضيف بن محمد الجبلى (محمد نور الدين - ود ضيف الله) : كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان (١٩٣٠) والأسس الإجتماعية التى قامت عليها - ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٩٥٩).

(٢٠) Trimingham, J.S.: Islam in the Sudan (1949)

فالرحالة چيمس بروث (James Bruce) قام برحلات فى السنوات من ١٧٦٨ إلي ١٧٧٣ كشف خلالها المنابع الحبشية للنيل وزار منابع النيل الأزرق ووصل إلى مخرج النيل من بحيرة تانا واقتفى أثره إلى ملتقى النيلين الأبيض والأزرق ثم سار شمالاً إلى بلاد النوبة فمصر.

وقد سجل ملاحظاته فى عدة مجلدات، وبروث أسكتلندى الأصل، والحقيقة أن وصفه لمشاهداته المتعلقة بمنابع النيل الحبشية دقيقة وإن كان إصراره على أن هذه هى المنابع الوحيدة للنهر قد أثار الكثير من الغبار حول المياه المتدفقة من الجنوب(٢١) .

ولابد أن نشير فى هذا المجال إلى رحلات وكتابات الرحالة المصرى البكباشى سليم قبطان الذى قام بثلاث رحلات بين عام ١٨٣٩، وعام ١٨٤٢ ووصلت رحلاته إلى قرب خط عرض ٤,٤٢ ْ وسجل هذه الرحلات وأخبار المناطق التى مرت بها الحملات والقبائل التى قابلها خاصة قبائل البارى - وأهمية هذه الرحلات أنها وجهت الأنظار إلى المجرى المائى الآتى من الجنوب فكانت بداية للرحلات الكشفية التى كشفت عن منابع النيل الإستوائية (٢٢) .

وتبعت ذلك رحلات برتون وسبيك (Speke and Burton) وهما إيرلنديان، وقد قاما برحلة من زنجبار فى عام ١٨٥٦ للكشف عن منابع النيل الإستوائية وقد أدى الخلاف بين المكتشفين عن حقيقة منابع النيل الإستوائية وهل ينبع النهر من بحيرة فكتوريا أم أن له صلة ببحيرة تنجانيقا وإصرار بيرتون على ذلك - إلى إرسال بعثات أخرى للوصول إلى حقيقة الأمر (٢٣).

---

(٢١) Bruce, J. : Travels to discover the Source of the Nile in the years 1768 - 1776 5 vols. (Edmburg 1809)

(٢٢) سليم قبطان : الرحلة الأولى للبحث عن منابع البحر الأبيض (النيل الأبيض) تعريب محمد مسعود القاهرة (١٩٢٢).

- نسيم مقار: البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل (١٩٦٠).

Werne, F.; Expedition to discover the Sources of the White Nile In the years 1840, 1841 (2 Vols. London 1849).

(٢٣) Burton, Richard: The Lake Regions of central Africa 2 vols, (London 1860).

فقد قام سبيك وجرانت (Speke and Grant) فى رحلة بدأت من زنجبار فى عام ١٨٦٠ وترتب عليها أنهما تحققا من أن النيل يخرج فعلاً من بحيرة فكتوريا (٢٤).

ومن الذين ساهموا أيضاً فى الكشف عن منابع النيل - سير صموئيل بيكر (S. Baker) الذى قضى فى السودان عاماً متتبعا روافد النيل الحبشية وطاف بالبلاد الواقعة على نهر العطبرة والنيل الأبيض حتى ملتقاه بالسوباط ونشر رحلته فيما بعد (٢٥).

وقد قام بيكر برحلة أخرى إلى المنابع الإستوائية للنيل فاكتشف فى مارس ١٨٦٥ بحيرة البرت وشلالات مرشيزون وسجل مشاهداته هذه التى إستحق عليها اللقب الذى إشتهر به وهو بيكر مرتاد النيل (Baker of the Nile) (٢٦).

وقد كانت لبيكر جولة أخرى قرب منابع النيل الإستوائية حين أوفدته الحكومة المصرية فى عام ١٨٦٩ لضم الأقاليم الواقعة جنوب غندكرو للإدارة المصرية وقد بقى فى مهمته هذه حتى سنة ١٨٧٣ وسجل مشاهداته هذه فى مجلدين كبيرين(٢٧).

كذلك نذكر فى هذا المجال جهود غوردون (Gordon) الذى عينته الحكومة المصرية مديراً للمديرية الإستوائية خلفاً لصموئيل بيكر، وقد بقى فى هذه المديرية من ١٨٧٤ إلى ١٨٧٦ ونذكر فى هذه الفترة جهود شايى لونج (Chaillé Long) الذى أرسلته مصر مع بعثة غوردون والذى كشف بحيرة البرت والذى عقد مع امتيسه ملك أوغندا معاهدة ربطت بلاده بمصر (٢٨).

(٢٤) Speke, J.H.: Journal of the Discovery of the Source of the Nile (Edinberg 1893)
ولمزيد من التفاصيل يرجع إلى : شوقى الجمل: تاريخ كشف أفريقيا وإستعمارها (١٩٨٠) ص ٨٣

(٢٥) Baker, Sir S. : The Nile Tributaries of Abyssinia (London 1867)

(٢٦) Baker : The Al bert Nyanza Great Basin of the Nile, (2 Vols - London 1866 - 1872).

(٢٧) Baker: Ismailia (2 Vols. London 1874).

(٢٨) Chaillé Long: My life in four continents Vol. 1 P. 67



كذلك نذكر جهود عدد آخر من المكتشفين منهم أمين باشا (ادوارد شنيتزر (Edward Schnitzer) الذى أصبح مديراً للمديرية الإستوائية وبقى بها قرابة العشر سنوات وكتب وصفاً دقيقاً لأحوال هذه البلاد وسكانها (٢٩).

ولعل تقرير الجنرال ستون (Stone) رئيس عموم أركان حرب الجيش المصرى عن هذه الأعمال المتعددة التى قام بها عدد من الرحالة الأجانب لكن لحساب مصر وفتوحه فيها يُعطى فكرة هامة عن هذه الجهود (٣٠).

على أن كتابات الأجانب عن مصر والسودان كان لها تأثيرها القوى فى فتح عيون الدول الإستعمارية لأهمية مصر وأهمية السودان بالنسبة لموقعهما الاستراتيجى خاصة بعد أن مدت مصر سلطانها كاملاً على ساحل البحر الأحمر الأفريقى والبلاد الواقعة عليه (٣١).

ولذا اتسمت كتابات الأوربيين عن مصر والسودان منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر بالذات بالصفة الإستعمارية. وكان الإتجاه الواضح هو الدعوة للدول الأوربية لتضع يدها على هذه المناطق الهامة خاصة بعد أن قنن مؤتمر برلين ١٨٨٤ / ١٨٨٥ مثل هذه العمليات وأشعل نار التطاحن الإستعمارى فى القارة.

والأجانب الذين كتبوا عن مصر والسودان واتسمت كتاباتهم بالنزعة الإستعمارية عديدون - لكن نذكر منهم على سبيل المثال كوبلاند (Coupland) (٣٢). وجونستون (Johnston) (٣٣). وتشرسل (Churchil) (٣٤). وكرومر (Cromer) (٣٥)

(٢٩) انظر Schweitzer, A. : Emin Pasha, his life and work 1898.

(٣٠) تقرير ستون موجود فى المحفوظات التاريخية بالقلعة.

Doss, 721 (Soudan et Afrique Equatoriate).

(٣١) لمن يريد دراسة الظروف التى مدت مصر نشاطها فيها على هذه الجهات يرجع إلى شوقى الجمل: سياسة مصر فى البحر الأحمر (١٩٧٣).

(٣٢) Coupland, R. : East Africa and its invaders (London 1938).

(٣٣) Johnston H.: The Opening of Africa (London 1828)

وكذلك Churchil, W: The River war

(٣٤) Cromer: Modern Egypt 2 Vols. (London 1692).

(٣٥) Gordon: The Journals of Major C.G. Gordon at Kartoum, (London 1885).

وغوردون (Gordon) [٣٦] وروملوجيسى (Gessi Romolo) [٣٧] ولوجارد (Lugard) [٣٨].

وقد إتسمت كتابات هؤلاء الأجانب كما قلنا بالدعوة إلى أن تمد دول أوربية نفوذها إلى هذه البلاد الهامة الواقعة فى حوض النيل، وقد اتسمت كتاباتهم بالبعد عن الموضوعية فكثيراً ما بعدوا عن ذكر الحقيقة الواضحة، فمثلاً عند الحديث عن تجارة الرقيق يحملون العرب والمسلمين وزرها متجاهلين الدور الأوربى فى إدخال الأسلحة النارية لاستخدامها فى عمليات القنص، بالإضافة إلى تشجيع الأوربيين للجلابة لجلب أكبر عدد ممكن من الرقيق لسد حاجة الأوربيين للأيدى العاملة فى المزارع وغيرها فى العالم الجديد [٣٩].

ومع ذلك نشير إلى أن بعض الفلتات من أقلامهم تشير إلى حضارة شعوب حوض النيل.

فمثلاً كوبلاند (Coupland) يشير إلى أن الرحالة العرب والأجانب على السواء لاحظوا ما عليه دول حوض النيل من حضارة، ويعلق على ذلك بقوله إن العرب كانوا في ذلك الوقت حملة لواء الحضارة، فلا شك فى أن مدارس بغداد والقاهرة وتونس كانت حتى القرن الثالث عشر تفوق تلك التى فى أكسفورد أو التى فى أية مدينة أوربية أخرى [٤٠].

وفيما يتعلق بالمؤرخين المصريين والسودانيين فى العصر الحديث فإنهم لم يتناولوا تاريخ بلادهم خاصة بلاد حوض النيل بصفة عامة فى كتاباتهم إلا أخيراً والذين تصدوا لهذا العمل من المؤرخين المصريين والسودانيين قلة محدودة.

ويلاحظ أن الكتابة التاريخية فى مصر والسودان قد سايرت إلى حد كبير الحركة الوطنية وكرست نفسها لخدمتها - ولعله أقرب إلى الصواب أن نقول أن الحركة الوطنية والكفاح ضد الإستعمار ساعدت على دفع عجلة التاريخ والكتابة

(٣٦) Gessi, Romolo: Seven Years in the Sudan (london 1812)

(٣٧) Lugard, F.J.D.: The Rise of our East African Empire 2 Vols .

(٣٨) (London 1893).

(٣٩) Jhonston : Op. Cit.

(٤٠) Coupland : Op. Cit. P. 39.

التاريخية، فظهر جيل من المؤرخين حاول أن يبرز دور مصر والسودان الحضارى ليصل من ذلك إلى إثبات حق شعوب وادى النيل فى أن تنال حريتها وحقها فى أن تحكم نفسها بنفسها – وفى نفس الوقت ساعدت هذه الكتابة التاريخية فى خلق وعى قومى وفى شحذ الهمم وإثارة النفوس ضد المستعمر.

ولعل من أبرز المؤرخين الذين ظهروا فى هذا المجال فى مصر عبد الرحمن الرافعى فى سلسلته الهامة عن تاريخ الحركة القومية، وقد خرجت هذه السلسلة فى عدة مجلدات تناول فيها الكاتب تاريخ مصر الحديث منذ الحملة الفرنسية مبرزاً بالذات ثورات المصريين ضد الغزاة المستعمرين وثوراتهم ضد الحكام المستبدين (٤١).

وقد أفرد دراسة خاصة للثورة العرابية، وكذلك لكل من مصطفى كامل، ومحمد فريد، كما أفرد دراسة للأوضاع فى مصر فى أعقاب الثورة المصرية وذلك فى جزئين خصص الأول للفترة من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول فى (٢٣ أغسطس ١٩٢٧)، والثانى لتاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول إلى وفاة الملك أحمد فؤاد فى ٢٨ أبريل ١٩٣٦ . وتتسم كتابات الرافعى بغزارة المادة العلمية إذ يستقى معلوماته من العديد من المصادر والمراجع باللغة العربية واللغات الأجنبية.

وقد حظى تاريخ السودان بالذات بإهتمام كثير من المؤرخين المصريين – فقد كانت قضية السودان هى القضية التى تؤرق بال المصريين خاصة بعد أن نجحت بريطانيا فى تحقيق حلمها فيه بعد القضاء على الثورة المهدية، وفى ظل النظام الجديد الذى وضع لحكم السودان بإسم وفاق أو إتفاق الحكم الثنائى عام ١٨٩٩ .

وإنبرى للكتابة فى هذا المجال لفيف من المؤرخين المصريين، وكان إعتماد عدد غير قليل منهم على ما بدار المحفوظات المصرية من وثائق خاصة بعد أن حظيت

(٤١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية فى عدة أجزاء إبتداءً من عصر المقاومة الوطنية التى اعترضت الحملة الفرنسية إلى ثورة ١٩١٩ .

الوثائق المرتبطة بتاريخ السودان بالعناية فترجم عدد كبير من الوثائق التركية إلى العربية وأنشئت محافظ السودان، ونظمت إلى حد كبير الدفاتر الخاصة بكل محافظة من محافظاته والتى سجلت فيها المكاتبات الواردة إليها أو الصادرة من المعية أو غيرها لهذه المحافظات (٤٢).

هذا بالإضافة إلى الإستفادة من الوثائق التى أودعها ونجت (Wingate) مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة درهام (School of Oriental Studis in Derham University) وقد إنكب بعض الباحثين المصريين على دراسة العلاقات التى ربطت بين مصر والسودان منذ أقدم العصور إلى عصرنا هذا (٤٣).

كما أن بعضها تعرض لقضية بعينها كالمنافسة بين الدول الإستعمارية على النفوذ فى المناطق الهامة من وادى النيل (٤٤).

والبعض ركز على دراسة تاريخ منطقة معينة من حوض النيل كالمديرية الإستوائية مثلاً (٤٥).

كما أن بعض الدراسات إهتمت بالنواحى الثقافية والإجتماعية فى مصر والسودان (٤٦). وقد حظيت قضية وادى النيل بالدراسات الرسمية بالإضافة إلى

---

(٤٢) أنظر ما أورده كاتب هذا البحث عن بعض مجموعات الوثائق الموجودة بمحفوظات القلعة فى هذا الشأن – شوقى الجمل : علم التاريخ – نشأته وتطوره ومناهج البحث فيه (١٩٨٢) ص ١٣٠ وما بعدها .

(٤٣) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان وتاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر (١٩٥٨) .

– الشاطر بصيلى : معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر إلى التاسع عشر القاهرة (١٩٥٥) .

زاهر رياض : السودان المعاصر (١٩٦٦) .

(٤٤) على إبراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل (١٩٥٨) .

(٤٥) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الأستواء المصرية (ثلاثة أجزاء ١٩٢٧) .

– جميل عبيد : المديرية الأستوائية (١٩٦٨) .

(٤٦) عبد العزيز عبد المجيد : التربية فى السودان والأسس النفسية والإجتماعية التى قامت عليها (ثلاث أجزاء – القاهرة ١٩٤٩)

الدراسات الفردية - وتتميز هذه الدراسات بإستنادها على الأسانيد القانونية وعلى المعاهدات والوثائق والقوانين الدولية (٤٧).

وقد كان تاريخ السودان بالذات وعلاقاته بمصر وكفاحه فى سبيل سيادته موضع العديد من الأبحاث الجامعية وهى أبحاث تخصصية عميقة تتميز بالدقة والإلتزام بالمنهج السليم فى البحث التاريخى وتعتمد على المصادر الأصلية من وثائق وغيرها (٤٨).

وهكذا نلاحظ أن هناك تركيزاً كبيراً على وضع السودان والحركة الوطنية فيه والروابط التى تربطه بمصر.

ولا شك فى أن الظروف التى كانت تمر بها قضية مصر والسودان والمحاولات المستميته للمستعمر لبذر بذور الشقاق بينهما كانت هى الدافع القوى وراء هذا الإهتمام بهذه القضية التى شغلت الرأى العام المصرى أكثر من غيرها.

ومن جهة المؤرخين السودانيين فقد تركزت كتاباتهم إلى حد كبير على تاريخ السودان الحديث بالذات، وقد حظيت الثورة المهدية بإهتمام خاص وليس هذا غريباً فهى ثورة وطنية لها مكانتها لدى السودانى العادى فبالاحرى أن تجد إهتماماً أكثر لدى المثقفين السودانيين.

---

(٤٧) جمهورية مصر - رئاسة مجلس الوزراء (السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١ إلى ١٢ فبراير ١٩٥٢).

(٤٨) يوسف فوزى عبد الله العربنى : أسترداد السودان (١٨٩٦ - ١٨٩٩) رسالة ماچيستير معهد البحوث والدراسات الأفريقية (١٩٦١).

يونان لبيب رزق : السودان فى عهد الحكم الثانى الثنائى الأول (١٨٩٩ - ١٩٢٤) رسالة دكتوراه كلية الأداب - جامعة عين شمس (١٩٦٧).

- تمام همام تمام: السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ - ١٩٥٣) رسالة ماچيستير معهد البحوث والداسات الأفريقية (١٩٧١)

- تمام همام تمام : موقف حزب الوفد المصرى من مسألة السودان (فى الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٥٩)

- محمد صلاح الدين قبضايا : حملات السودان فى الصحف القومية المصرية (١٨٩٦ - ١٨٩٨) رسالة ماچيستير معهد البحوث والدراسات الأفريقية (١٩٧٨).

وفى مقدمة الذين كتبوا عن الثورة المهدية الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم وقد أتيحت له فرصة الإطلاع على كثير من الوثائق الموجودة بدار الوثائق المركزية بالخرطوم فأمكنه أن يكشف الغموض عن كثير من المفاهيم المتعلقة بالمهدية، خاصة أن المهدية كما نعلم - بعكس الحركة السنوسية لم تترك لنا مصادر أصلية مطبوعة توضح مفاهيم الحركة ومبادئها فقد كانت فترة حكم المهدى بعد سقوط الخرطوم قصيرة جداً ولم تتح له فرصة الكتابة أو التأليف ولم يكن الخليفة التعايشى الذى ابتدأ حكمه بعد المهدى قرابة ثلاثة عشر عاما (١٨٨٥ - ١٨٩٨) فى وضع يتيح له فرصة نشر أى شىء يتعلق بتعاليم المهدية [٤٩].

وقد إكتسبت بعض المعارك المتصلة بالمهدية أيضاً إهتماما خاصاً [٥٠].

كذلك إهتم بعض المؤرخين بعلاقات الإدارة المهدية بجيرانها خاصة الحبشة [٥١]. وقد حظيت حركة اللواء الأبيض وكفاح البطل على عبد اللطيف بإهتمام أيضاً من المؤرخين السودانيين [٥٢].

ومن الكتابات الجادة عن تاريخ السودان مؤلفات الدكتور مكى شبيكه [٥٣]. كذلك يذكر فى هذا المجال كتابات الأستاذ نعوم شقير [٥٤]. وهناك كتابات تعرضت لقضية الجنوب بإعتبارها قضية حساسة تهم السودان بعد استقلاله[٥٥].

(٤٩) محمد أبراهيم أبو سليم : منشورات المهدية (بيروت ١٩٧٠)
- الأرض فى المهدية (الخرطوم ١٩٧٠)- مفهوم ولاية العهد فى المهدية (الخرطوم ١٩٧٠).
- المهدى عليه السلام (الخرطوم ١٩٧٢) .

(٥٠) ميمونه - مرغنى حمزة : حصار وسقوط الخرطوم (١٩٧٢)
عصمت زلفو : كررى - تحليل عسكرى لمعركة أم درمان (الخرطوم ١٩٣٧) .

(٥١) محمد سعيد القدال : المهدية والحبشة (الخرطوم ١٩٧٣)

(٥٢) سليمان كشة : اللواء الأبيض (الخرطوم ١٩٦٠) .
محمد حسن عوض : قضية كفاح البطل على عبد اللطيف (القاهرة ١٩٥٥)

(٥٣) مكى شبيكه : السودان عبر القرون (القاهرة ١٩٦٤)
شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل - مصر والسودان فى القرن التاسع عشر الميلادى (بيروت ١٩٦٥) .

(٥٤) نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث ٣ أجزاء (القاهرة ١٩٠٣)

(٥٥) محمد عمر بشير : مشكلة جنوب السودان (الخرطوم ١٩٦٧)

ومن الكتابات التى تناولت موضوعاً متكاملاً فى تاريخ السودان ما كتبه الأستاذ محمد عمر بشير عن تاريخ الحركة الوطنية فى السودان (١٩٠٠ - ١٩٦٩) [٥٦].

من هذا العرض السريع للجهود المبذولة لتاريخ مصر والسودان نلاحظ:

١- بدأت الأنظار تتركز على حوض النيل وأقطاره نتيجة الكشوف الجغرافية وما كتبه الرحالة من يوميات.

٢- دلت الآثار التى كُشف عنها عن قيام حضارة زاهرة فى مصر وبلاد النوبة، وقد كان للفرنسيين الفضل فى الحفاظ على الآثار المصرية بالذات ونذكر فى هذا المجال جهود ماريت، وماسبيرو.

٣- منذ بداية القرن التاسع عشر بدأ عدد من الرحالة الأجانب يهتم بزيارة مصر وبلاد النوبة ويسجل ملاحظاته عنها.

٤- بدأت البعثات الأثرية منذ أوائل القرن العشرين تكشف عن آثار بلاد النوبة بالذات.

٥- ظهر بعد ذلك جيل من المؤرخين المصريين الذين اهتموا بالبحث فى آثار مصر القديمة ودراستها، وقد أبرز هؤلاء المعالم الرئيسية للحضارة الفرعونية.

٦- تاريخ مصر وبلاد النوبة فى العصر الرومانى إرتبط بالأحداث الهامة كدخول المسيحية فى هذه البلاد وأضطهاد الرومان للمسيحيين.

٧- بدخول العرب مصر فى عام ٦٤١م دخل تاريخها ضمن التاريخ العربى أما فيما يتعلق بعلاقات مصر الإسلامية ببلاد النوبة فقد أتسمت بالمعاهدات التى عقدت بين حكام البلدين .

٨ - حظى تاريخ مصر الإسلامية بالأهتمام والدراسة خاصة من أساتذة التاريخ الإسلامى فى الجامعات المصرية، كذلك هناك بعض الدراسات عن المجتمع

---

(٥٦) صدر الكتاب باللغة الانجليزية Mohamed Omer, Beshir: Revolution and Nationalism in the Sudan (London 1974).

وقد ترجم إلى العربية : ترجمه هنرى رياض - وصدرت الترجمة فى دمشق ١٩٨٠

السودانى والثقافة فى السودان بعد أن أنتشر الإسلام فى ربوعه يحتاج الأمر للمزيد من الدراسات .

٩ - أرتباط تاريخ حوض النيل عامة ، ومصر والسودان خاصة فى العصر الحديث بالجهود التى بُذِلَتْ لحل مشكلة النيل والكشف عن حقيقة مجرى هذا النهر .

١٠ - كتابات الأجانب عن مصر والسودان التى أبرزت أهمية موقعهما فتحت عيون الدول الإستعمارية لهذه البلاد ، فقد أتسمت هذه الكتابات بالدعوة السافرة أو المقنعة لإستعمار هذه البلاد .

١١ - كتابات المورخين المصريين والسودانيين فى العصر الحديث أبرزت إلى حد كبير الحركة الوطنية وتفاعلت معها .

وقد برز فى هذا المجال عدد من المؤرخين المصريين ، وعدد من المؤرخين السودانيين.

١٢ - حظيت قضية السودان والوحدة بين شطرى وادى النيل بكتابات الكثيرين من المؤرخين المصريين .

وقد أعتمدت كتابات الكثيرين من المؤرخين المصريين فى هذا المجال على وثائق المحفوظات التاريخية المصرية خاصة بعد أن نظمت الوثائق المتعلقة بتاريخ السودان ، وترجم عدد كبير من الوثائق التركية إلى العربية.

١٣ - أتجهت بعض الأبحاث والدراسات لدراسة منطقة بذاتها لها أهميتها الخاصة كالمديرية الإستوائية .

١٤ - كما ظهر العديد من الأبحاث الجامعية المتعلقة بتاريخ مصر والسودان .

١٥ - كان للثورة المهدية بالذات دور بارز فى كتابات كثيرين من المؤرخين السودانيين، وأعتمدت كتابات الكثيرين منهم على دار الوثائق المركزية فى الخرطوم خاصة بعد أن رتبت الوثائق ونظمت وأصبحت فى متناول الباحثين.

كما اهتم كثيرون منهم بالتاريخ للحركة الوطنية فى السودان خاصة حركة اللواء الأبيض وجهاد على عبد اللطيف .